المجلة السعودية للدراسات التربوية
والنفسية
الإصدار الرابع عشر
المجلد (٥) العدد (٣)
٢٠٢٤ (١٠-١)

دراسةُ بعض حكايات الأولياء والصالحين لليافعي في ضَوء النّظريّة المحمّديّة

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

محمد داود عبد ربه الفقيه

طالب دكتوراه في جامعة النجاح الوطنية، محاضر في جامعة بيت لحم

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٣٠ نوفمبر ٢٠٢٤

الملخص

هذا البحث عبارة عن قراءة في بعض حكايات الأولياء والصالحين في ضَوء النّظريّة المحمّديّة من خلال كتاب"روض الرياحين" لعبدالله اليافعي، للكشف عن أثر النظرية المحمدية في حكاياته، التي سردها عن أخبار الأولياء والصالحين، تجلّى بعدها للباحث أنّ هذا الأديب لم ينظّر للحقيقة المحمّدية فكريّا، بل كان تركيزه في حكاياته، التي اعتمد في سردها على السماع أو المعايشة، على أثر هذه النظرية بأبعادها المختلفة في حياة الأولياء والصالحين بصورة واقعية؛ حتى تكون مقنعة للآخرين، ومؤثرة فيهم، ووسيلة جذب واستقطاب، وممّا يدلّل على ذلك عدد الحكايات الذي وصل خمسمئة حكاية، كان أبطالها وشخصياتها من أقطاب الصّوفيّة، أو ممّن سار على طريقتهم، وآمن بهذه النظريّة.

Abstract

This research is a reading of some of the stories of the saints and the righteous in the light of the Muhammadan theory through the book “Rawd al-Yafi’i” by Abdullah al-Yafi’i. He discovered the zeal of Muhammadiyah in his stories, which he narrated about the news of the saints and the righteous. It became completely clear to the researchers that this writer did not theorize the Muhammadan truth intellectually. Rather, his focus in his stories, which he narrated over headphones or living, was on the impact of this phenomenon in its various dimensions on the lives of saints and righteous people in a realistic way. So that it becomes

people, influences them, and is a means of attracting and attracting, and what is evidence of this is the number of stories that reached a story, whose heroes and characters were from the poles of Sufism, or those who followed their path, and a cover of this theory.

*** المقدّمة**

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علّمه البيان، والصلاة والسلام على سيدنا محمّد – صلّى الله عليه وآله وسلم – صاحب أفصح لسان، أمّا بعد فقد حفل تاريخنا على مرّ العصور بظواهر متعددة ، في جوانب الحياة المختلفة، تبنّاها أدباء وشعراء وكُتّاب؛ وعبّروا عن إيمانهم بها في إبداعاتهم الأدبية؛ الشعرية والنثرية، ومن هذه الظواهر ظاهرة التصوف، بفرقه المنصفة والمنحرفة، التي احتضنها أدباء وشعراء أعلام، تعرّض إنتاجهم الأدبي فيما بعد للدراسة والتحليل من زاوية لغوية بحتة، إذ لم تغص هذه الدراسات في تأويل البعد الفكري لهذا الأدب، ولاحقا ظهرت دراسات تأويلية لهذا الإنتاج الأدبي منطلقة من الحقيقة المحمدية؛ وصلت إلى نتائج مختلفة عن الدراسات التقليدية السابقة.

تنبع أهمّيّة البحث من أنه يدرس الحكايات المختارة، دراسة تأويلية، معتمدا على أصول النظرية المحمدية ونتائجها في قراءته لها، خلافا للدراسات التقليدية؛ فهي ليست دراسة لغوية بحتة– وإن كانت تستأنس بها.

وبناء على ما سبق، كان من دواعي البحث في كتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين لليافعي(ت٧٦٨هـ) الكشف عن أثر النظرية المحمدية في حكاياته، التي سردها عن أخبار الأولياء والصالحين ممن انتهج نهج المتصوفة وتأثر بهذه النظرية.

واقتصر البحث على دراسة خمس عشرة حكاية من حكايات الكتاب، التي تعدّ أنموذجا، وشاهدا على وجود أصول النظرية المحمدية ونتائجها في حكايات هذا الكتاب.

وللوصول إلى بيان أثر النظرية المحمدية في حكايات الأولياء والصالحين في هذا الكتاب، اتبع الباحث منهج قراءة الحكايات التي سردها المؤلف، وفق نظرية الحقيقة المحمدية والخطاب الصوفي في ذلك.

وأمّا فيما يتعلق بالدراسات السابقة، التي تناولت أدب اليافعي، فقد وجدتها قليلة، إذا ما قيست إلى غزارة إنتاجه الأدبي ، ولم تربط أدبه الشعري أو النثري بالحقيقة المحمدية، ولم تدرسه بناء عليها، وإنما عزته إلى ما يعرف بشطحات الصوفي، ونذكر منها؛ الإشارة إلى منظومات اليافعي، التي تناولها زكي مبارك، ثمّ علّق عليها بقوله:" وليس في منهج اليافعي ما يعاب غيرَ الإسراف في التشبث بصحة الكرامات، وهذا يقلب مسلكه المأمون في التصوف؛ لأنه يصور أقطاب الصوفية بصورة من يملكون تصريف الوجود"(زكي مبارك،ج١، ص٢٤٦-٢٤٧،١٩٣٨م)، ودراسة بعنوان(اليافعي شاعرا)، إذ هدف هذا البحث إلى دراسة شعر اليافعي موضوعياً وفنياً،(اليافعي شاعرا،٢٠١٠).

وبحث بعنوان(وجهة النظر في الحكاية الصوفية عند اليافعي) توجه البحث إلى فحص المفهوم و حدوده و ما قام حوله من تنظير، ثم المضي إلى المتن السردي الصوفي؛ ليكشف الخصوصية التي يقوم عليها بناؤه، من تلك الوجهة–أي وجهة

النظر– و مدى ترابطها و تعالقها مع العناصر الأخرى المشكّلة للحكاية الصوفية، (وجهة النظر في الحكاية الصوفية عند اليافعي،٢٠١٩م).

وقد انتظم عقد هذا البحث، بعد الملخص، في مقدمة وبابين، تحدّث الباحث في الأوّل منهما، عن شيء من حياة المؤلف، والتعريف بالكتاب، وحدّ النظرية المحمديّة ، ثمّ كانت الخاتمة، التي تضمّنت أبرز النتائج.

أوّلاً– نبذة من حياة اليافعي

*** أصله ونشأته**

مما لا شك فيه، أن الإنسان لا يختار الزمان أو المكان الذي يولد فيه، ومن حسن طالعه أن يولد في بيئة، تكفل له تنشئة متميزة، فضلا عن أن يكون هذا الإنسان صاحب همّة وإرادة، وهذا ما جمعه اليافعي.

هو "عبد الله بن أسعد بن عَليّ بن سُلَيْمَان بن فلاح، اليافعيّ، الشَّافعيّ، اليمنيّ، ثمَّ الْمَكّيّ، عفيف الدّين أَبُو السعادات وَأَبُو عبد الرَّحْمَن. ولد قبل السبعمائة بِسنتَيْنِ أَو ثَلَاث، وَذكر أَنه بلغ الْحُلم السنة الحادية عشرة، وَأخذ بِالْيمن عَن الْعَلامة أبي عبد الله مُحَمَّد بن أَحْمد الذهيني الْمَعْرُوف بالبصّال، وَعَن شرف الدّين أَحْمد بن عَليّ الْحَرَازِي قَاضِي عدن ومفتيها، وَنَشَأ على خير وَصَلَاح وَانْقِطَاع، وَلم يكن فِي صباه يشْتَغل بِشَيْء غير الْقُرْآن وَالْعلم، وَحج سنة اثنتي عشرة وَصَحب الشَّيْخ عليّا الطواشي فسلكه وَحفظ الْحَاوِي والجملُ، ثمَّ جاور بِمَكَّة من سنة ثماني عشرة، وَتزَوج بهَا. ولازم مَشَايِخ الْعلم، وَمن شُيُوخه الْفَقِيه نجم الدّين الطَّبَرِيّ، قَرَأَ عَلَيْه الْحَاوِي فِي سنة ، وَسمع الحَدِيث من الرضي الطَّبَرِيّ، ثمَّ فَارق ذَلِك وتجرّد عشر سِنِين، يتَرَدَّد فِيهَا بَين الْحَرَمَيْنِ ،ورحل إِلَى الْقُدس سنة أربع وثلاثين، وَدخل دمشق، ثمَّ دخل مصر وزارالشَّافِعِي"(العسقلاني، ١٩٧٢م،ج٣،ص١٨).

*** صفاته**

ذكرت كتب السيروالتراجم لليافعي صفات كريمة، وهي تتوافق مع سيرته العملية والعلمية،فكان اليافعي فقيهاً زاهداً متصوفاً في آرائه وسلوكه، فأحبّ الخلوة والانقطاع عن الناس، متبعاً طريقة ابن عربي في التصوف، وقد استفرد في نفسه عشر سنين منقطعًا للعبادة والتأمل في الحرمين الشريفين، وكان كثير البر والصدقة والإيثار، متواضعًا مترفعًا عما بيد الناس مع الفقر والعفاف، معرضًا عن الدنيا ومفاتنها، مربيًا للطلاب والمريدين، فصار إمامًا يُسترشد بعلومه، ويُقتدى بسلوكه في العمل، يُقدره الناس حق قدره، ويكبرون علمه وخلقه(ابن بردي،ج٧، ٧٦).

*** مؤلفاته**

كان اليافعي مؤلفًا مُكثرًا في علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه والتصوف والتاريخ واللغة والشعر، "ومن كتبه مرآة الجنان، وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ونشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، والدر النظيم في خواصّ القرآن العظيم، ومرهم العلل المعضلة، وروض الرياحين في مناقب الصالحين، وأسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبدالقادر"(الزركلي،٢٠٠٢،ج٤،ص٧٢).

*** وفاته**

اتّفق المؤرخون على التاريخ الذي توفي فيه اليافعي، حيث "مات في مكة في جمادى الآخرة من سنة ثمان وستين

وسبعمائة، ودفن بمقبرة باب المعلى بجوار الفضيل بن عياض"(الأصفهاني، ج١،ص٦٥).

ثانياً– التعريف بكتاب روض الرياحين

ذكر اليافعي في مقدمته أنّه ألّف هذ الكتاب، الذي سمّاه بروض الرياحين في حكايات الصالحين، ولقّبه بزهة العيون النواظر وتحفة القلوب الحواضر في حكايات الصالحين والأولياء الأكابر، وقد ضمّنه أشعارا نظمها تعبيرا عمّا اختلج في صدره.

يبدو –للوهلة الأولى لمن يتصفّح كتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين– أنّ الهدف من تأليف هذا الكتاب هو التأريخ لحيوات بعض المتصوفة، الذين أحبّهم وسار على طريقتهم، وإظهار كراماتهم، وتقديم المواعظ الأخلاقية والدينية، ولكنه إذا ما أمعن النظر والفكر فيه، فإنه يجد أنّ الهدف من تأليف هذا الكتاب، ليس ما ذكره فقط، بل هو للدفاع عن الفكر الصوفي، والدعاية والترويج له، وقد كان ذلك من خلال تسليط الضوء على فضائل الأولياء، وإثبات الكرامات الخارقة للعادة لهم، والرد على من ينكرها.

وقد أشار اليافعي إلى أنّه لم يعتمد في إثبات حكايات هذا الكتاب على الرواية والإسناد، وإنما اقتصر تركيزه على مضمون هذه الحكايات، التي سمعها أو رويت له، أو قرأها في كتب المتصوفة، وقد ذكر بعضا من الذين أخذ عنهم بعض هذه الحكايات، فوصفهم بالأئمة الكبار من أهل العرفان، أمثال الإمام أبي حامد الغزالي، والإمام القشيري، والإمام العالم أبي الفرج بن الجوزي.

والحكايات التي أوردها في هذا الكتاب، كانت حكايات منفصلة، لا توجد فيها أحداث رئيسة ثابتة فيها، ولم تخل من إبراز القيم الأخلاقية والدروس الحياتية، وقد بلغ عددها خمسمئة حكاية، بين طويلة وقصيرة، إذ بعضها تشكل من فقرة أو فقرتين، وبعضها الآخر من صفحات.

وأمّا أقسام الكتاب فكانت خمسة فصول والمقدمة والخاتمة منها، وجاء تقسيمها على النحو الآتي:–

١– ذكر فيه فضائل الأولياء الصالحين، والفقراء والمساكين، مما جاء به القرآن والأخبار والآثار.

٢– تحدّث فيه عن إثبات كرامات الأولياء.

٣– كان في الجواب عن إنكار وقع من بعض الفقهاء والمصنفين على الفقراء.

٤– كشف فيه عن عقيدة المشايخ العارفين الربانيين المكاشفين، والعلماء المحققين، والأئمة المدققين.

٥– حصره في توحيد الرحمان وطرف من طرف أهل الجنان. (اليافعي، دت)

ثالثاً– حدّ النظرية المحمدية

ممّا لاشك فيه أن التاريخ الإسلامي حفل بظهور فرق وطوائف، تشكلت أو تكتلت بناء على فكرة أو نظرية آمنت بها، وهذه الفكرة كانت تتطوّر أو تتغيّر، مع مرور الزمن، أو التأثر بأفكار أخرى، ومن هذه الفرق كان المتصوفة ، الذين آمن فرق منهم بالنظرية المحمديّة؛ فرسخت في عقولهم وقلوبهم، واجتهدوا في نشرها والتعبير عنها في شعرهم ونثرهم.

وبناء على ما تقدّم، كان لازما على من يريد دراسة الأدب الصوفي، أن يطّلع على هذه النظرية؛ ليتعرف أبعادها

المختلفة، التي رسمها أقطاب المتصوفة أنفسهم، والباحثون في أدبهم من بعدهم، وهذا سينعكس بدوره على نتائج الدراسات التي تتناول الأدب الصوفي؛ بشعره ونثره.

يقول ابن عربي:" ... فبعد فهم جوامع الكلم الذي هو العلم الإحاطيّ، والنور الإلهيّ، الذي به اختص سرّ الوجود، وعمد القبة وساق العرش وسبب ثبوت كلّ ثابت محمد–صلى الله عليه وسلم–..." (ابن عربي، ج١،ص١٣٤،دت)، فمن قوله هذا نرى أن الأساس الذي تقوم عليه هذه النظرية أنّ محمدا– عليه السلام– هو أصل الخلق ومحور الوجود، ويرى زكي مبارك " أنّ الحقيقة المحمدية مدهشة؛ لأنّه يردّ إليها كل شيء، فهي الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني، وهي لا تتحيز، فلا يحصرها أين، ومفهوم جدّا أن هذه حالة إلهية، والإنسان إله ومألوه في وقت واحد، هو إله؛ لأنه يتصرف في الكون، وهو مألوه؛ لأنه نشأ عن الحق، أي: أنّ له درجتين، درجة العبودية ودرجة الألوهية".(زكي مبارك،ج١، ص٢٠١، ١٩٣٨م)، وتصرّح الحقيقة المحمدية أنّ الوجود المحمدي سابق على كل المخلوقات، ومن نوره استمد الكون نوره ووجوده، ولولا الحقيقة المحمديّة لما كان هناك وجود ولا خلق. وهكذا تشكّلت عند معتقدي هذه النظرية من المتصوفة أصول، من أهمّها أنّ النور المحمّدي من نور الله، وأنّ نوره أصل الخلق والوجود، وأنّه يتنقل في الأصلاب، ثمّ بني على هذه الأصول نتائج، منها علوّ مكانة محمد–عليه السلام– عند الله–تعالى–، وأفضليته على الخلق أجمعين، وكمال رسالته– عليه السلام–،" ومن الطبيعي أن يكون لها أثر في سلوك مريديها وأتباعها من المتصوفة في جوانب حياتهم وطقوسهم القوليّة والفعلية، ومنها أدعيتهم وعباداتهم، وما ينتجون من نصوص فنية، ومنها الشعر".(رائد عبد الرحيم،٢٠٢٠م، ص٢٨)

*** الحكاية الأولى**

تبرز هذه الحكاية، التي مسرحها مكة المكرمة، تأثير الوجد الصوفي في المحبّ، وظهور آثاره على جوانحه وجوارحه، وهو يريد أن يلتمس علاجا لما يعانيه من الوجد، ولكنه لا يلتمسه عند أيّ أحد، بل يهش ويبش، عندما يلتقي بالشيخ، الذي وصفته: كأنّه يخبر عن أهل القبور، ثمّ يخاطبه المحب قائلا: يا سيدي، إنّ الله قد جعلك وأمثالك أطباء لأسقام القلوب، ومعالجين لأوجاع الذنوب، وبي جرح قد نغل، وداء قد استمكن وأعضل، فإن رأيت أن تتلطف في بعض مراهمك فافعل.

فهذه الشيخ ليس شيخا عاديّا، وإنما هو ممن حاز أو ورث سرّا من أسرار النور المحمديّ، فيستطيع به أن يكشف أسرار القلوب، وأن يشفي من يطلب منه الشفاء.

وتصرّح الحكاية أيضا بأنّ المحبّ يمكن له أن يترقّى؛ ليكون من الواصلين؛ ليرى ما لا يراه غيره، فقال: إنّ المحبّين لله– تعالى– شق لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلوب إلى جلال عظمة الإله المحبوب، فصارت أرواحهم روحانية، وقلوبهم حجبية، وعقولهم سماوية، تسرح بين صفوف الملائكة الكرام، وتشاهد تلك الأمور باليقين والعيان،... (اليافعي، ص٤٢–٤٣،دت).

*** الحكاية الثانية**

وفي هذه الحكاية، يتجلّى ارتباط عالم اللاهوت بعالم الناسوت، وهذا الارتباط يشكّل أحد الأسس التي تقوم عليها النظرية المحمديّة، فالمريد أو المحبّ يصل إلى الإحساس بأنّه يتقلبّ في عالم اللاهوت بإحساسه وروحانيته، وإن كان بجسده في عالم

الناسوت، فينال درجة الولاية النورانية، التي تعني أن يصبح عالم اللاهوت أولى به من عالم الناسوت، قال: فصاح الشاب صيحة، فارق بها الدنيا، فقمت؛ لآخذ في غسله ودفنه، فإذا بقائل يقول: خلّ عنه، فإنّ الله-عزّ وجلّ- وعده ألّا يتولى أمره إلّا الملائكة،... (اليافعي،ص٤٣-٤٤).

*** الحكاية الثالثة**

وتمضي هذه الحكاية في تأكيد أنّ أصحاب الولاية لهم كرامات كما أنّ للأنبياء معجزات، وهذه الكرامات لاينالها إلّا من اتبعت روحه النور، فاقتبست منه، فعوامل الطبيعة لا تؤثّر فيهم، بالرغم من أنّ ملابسهم متواضعة، وطعامهم وشرابهم قليل، وكذلك يلبى لهم ما يطلبون من عالم اللاهوت، وإن كان ما يطلبون ليس من متعلقات الدنيا، قال: فخرّ لله-تعالى- ساجدا، وجعل يقول: هذا مقام من لاذ بك، واستجار بك، وألف محبتك، فيا إله القلوب ، وما تحويه من جلال عظمتك، احجبني عن القاطعين لي عنك، ثمّ غاب عنّي، فل أره-رضي الله عنه-، ثم ذكر بيتي شعر على لسان شيخ: (اليافعي ص٤٤)

له خصائص مصطفون لحبه اختارهم في سالف الأزمان

اختارهم من قبل فطرة خلقه فهم ودائع حكمة وبيان

*** الحكاية الرابعة**

والمدقق في هذه الحكاية، يرى أثر النظرية المحمدية واضحا فيها، وذلك من خلال الحديث عن الأبدال من الرجال والنساء، وعن القدرة على الكشف، والتكلم مع الخضر-عليه السلام-، ولا شك أنّ هذه المرتبة لا يصل إليها في الحكاية الصوفية، إلا من اتصل بالنور المحمدي بالوراثة أو الولاية، وكان هذا له على الحقيقة وليس على سبيل المجاز، قال: حضرت إملاك بعض الأبدال من الرجال ببعض الأبدال من النساء، فما كان في جماعة من حضرأحد إلا وضرب بيده في الهواء، وأخذ شيئا، فطرحه من درّ و ياقوت وما أشبهه. قال الجنيد: فضربت بيدي، فأخذت زعفرانا فطرحته، فقال لي الخضر-عليه السلام- : ما كان في الجماعة من أهدى ما يصلح للعروسين غيرك...(اليافعي، ص٤٤-٤٥).

*** الحكاية الخامسة**

وأمّا في هذه الحكاية، فنرى علاقة الشيخ أو الولي بعالم الغيب، فهو يشكو من ألم أقعده عمّا كان يقوم به من أعمال، ثمّ تأخذه سنة من النوم، فيرى في منامه ما يسعد روحه وقلبه، ويشفيه ممّا يجد من الألم في ساقه، فينشط من عقاله، وهذا الأمر لا يحدث لأي شخص، وإنما يكون لصاحب ولاية نورانية، وصل إلى درجة من الصفاء والنقاء تمكّنه من الاتصال بذاك العالم، وأن يعيشه واقعا لا خيالا...وقال: فاستيقظت، والله، كأني نشطت من عقال، فما اشتكيت تلك العلة بعد تلك الليلة علّتي تلك، ولا ذهب من قلبي حلاوة منطقها بقولها: قم، شفاك الله إلى صلاتك غير مضرور(اليافعي،ص٤٥)

*** الحكاية الثالثة والعشرون**

وفي هذه الحكاية، يظهر أثر الحقيقة المحمدية من خلال التوسّل، فيطلع اليافعيُّ القارئ على أنّ الولي لديه القدرة على تحقيق مراده، والوصول إلى مبتغاه، فهو يطوف بالكعبة ويناجي ربه متوسلا بأصفيائه من الأنبياء، وما هي إلّا لحظات؛ حتى تنبلج أسارير الولي بالبشر والفرح...قال: إذ أنا بشخص قد حاذى البيت وهو يقول: عبدك المسكين الطريد الشريد من

بين يديك، أسألك من الأمور أقربها، ومن الطاعات أحبّها، وأسألك بأصفيائك من خلقك الكرام من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، إلا سقيتني بكأس محبتك، وكشفت عن قلبي أغطية جهل معرفتك،...(اليافعي، ص٦٢-٦٣).

*** الحكاية السادسة والثلاثون**

وفيها حوار بين أحد شيوخ الصوفية وأحد المحبين، الذي يتهمه الناس بالكفر؛ لأنّه يزعم أنّه يرى ربه، فيطلب الشيخ من الصبيان أن يكفّوا عنه؛ حتى يسأله، فيجيبه:.. وحقّ من تيمني بحبّه، وهيمني بين بعده وقربه، لو احتجب عني طرفة عين؛ لتقطعت من ألم البين،...ثمّ أنشأ يقول:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب

ولكنّ الشيخ يعلّق على البيت، ويرى أنّ (وحبّك في قلبي)، بدل (ومثواك في قلبي)؛ لأنّ هذا لا يليق بصفات الله-تعالى-، و لا يعترض على رؤية الولي لربه، فهذا أمر مقبول عنده. (اليافعي، ص٧٢)

*** الحكاية الثالثة والستون**

محور هذه الحكاية، يكشف أنّ العالم الغيبي يصل إليه الأولياء عند الحاجة، بل إنّه يأتي إليهم، في أحيان كثيرة، دون طلب المساعدة، فأحد الصالحين يقصد بيت الله الحرام حاجّا، وفي طريقه ينقطع عن قافلته، ثمّ تأخذه سنة من النوم، يرى فيها غلاما، عليه من النور والبهاء ما كساه حسنا وجمالا، فيأخذ بيد الصالح ليلحق بركبه، ثمّ يلتقي الغلام النوراني مرّة أخرى، حول الكعبة، وهو يبكي ويتضرع حتى قضى نحبه، ثمّ ما يلبث أن يختفي، فيسأل من حوله عنه، فلم يره أحد، ثم يراه في نومه، فيسأله عن حاله، ويصافحه، فتصيب الصالح رائحة زكية، يشمها كلّ من يصافحه.(اليافعي،ص٩٩-١٠٢)

*** الحكاية السابعة والستون**

وفي هذه الحكاية، يروي اليافعي على لسان الشيخ أنّ الولي، الذي ورث النور المحمّدي، يمتلك القدرة على رؤية ما لا يراه إلّا نبي مرسل، أو ولي مقرّب، ويصل إلى الاطلاع على الغيب، ويحاور الملائكة، فيعرفونه بعدد من وقف بعرفات، وبعدد من قُبل منهم،... قال: كنت سنة في عرفات، فلمّا كان في آخر الليل نمت، فرأيت ملكين نزلا من السماء، فقال أحدهما لصاحبه: كم وقف هذه السنة؟ قال له صاحبه: ستمئة ألف، فلم يقبل منهم ألّا ستة أنفس...(اليافعي، ص١٠٤).

*** الحكاية الرابعة والتسعون**

وأمّا شخصية الولي في هذه الحكاية، فهي كالعادة، شخصية متواضعة، لا يقيم لها مَن يراها وزنا، ولا يؤبه لها، في أوّل الأمر، وهذه سيما الأولياء والصالحين، وهذا ممّا يترك أثرا بالغا فيمن يقرأ هذه الحكايات أو يسمعها، ولكنها تتميّز عندما يجرى على يديها الخوارق والكرامات، فتدهش من يراها، فالولي في هذه الحكاية يتهم بالسرقة لرقّة حاله، ولكنه يرفض هذه التهمة، ويخاطب ربّه بلا وساطة، فيسخر له بعض مظاهر الطبيعة التي تظهر ولايته وصدقه؛ حتى يعتقد الناس أنّه أحد الأبدال، الذين يتوارثون السر الإلهي،...قال: وثب وثبة من المركب حتى جلس على أمواج البحر، وقام له الموج على مثل السرير، ونحن ننظر إليه من المركب، وقال: يا مولاي، إنّ هؤلاء اتهموني، وأنا أقسم عليك، يا حبيب قلبي، أن تأمر كلّ دابة في

هذا المكان أن تخرج رأسها وفي أفواهها جواهر...(اليافعي، ص ١٢٥).

*** الحكاية الثانية عشرة بعد المئة**

وما يزال اليافعي يعرض في حكاياته صورا شتى لمراتب الأولياء والصالحين؛ حتى وصل بعضهم بنورانيته إلى مراتب الأنبياء، فأصبح يخبر بعلمه عمّا سيقع، أو عمّا هو واقع في مكان بعيد عن الناس،... قال: هل منكم من إذا أرد الحق- سبحانه وتعالى- أن يحدث في المملكة حدثا أعلمه قبل أن يبديه؟ قلنا: لا، قال: ابكوا على قلوب لا تجد من الله-تعالى- شيئا.(اليافعي، ص١٢٥).

*** الحكاية الخامسة عشرة بعد المئة**

ويسير الولي في هذه الحكاية، سيرة الأنبياء، فهو على سَفر وفي صحبته نصراني، وبعد مسيرطويل، مسّهما الجوع، فيطلب النصراني من الولي، أن يطلب من ربه طعاما، فيأتيهما طعام، يأكلان منه، وبعد مسير، يطلب الولي من النصراني أن يطلب لهما طعاما، فيرى الولي أن الطعام الذي طلبه النصراني أكثر من الطعام الذي طلبه هو، وعندما سأله الولي عن سبب ذلك، نطق الصراني الشهادتين، وقال له: إنما طلبت الطعام متوسلا بك، فأعطاني،...فقال: كُلْ، فإني أبشرك ببشارتين: إحداهما أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وحلّ الزنّار، والأخرى، قلت: اللهم، إن كان لعبدك هذا حظٌ عندك، فافتح علينا،...(اليافعي، ص١٣٦)

*** الحكاية السابعة والعشرون بعد المئة**

وفي هذه الحكاية، يعلي اليافعي من شأن الأولياء ، فهم يرون رأس الغواية، ويحاورونه، فالولي يرى في منامه إبليس وهو عريان، فيطلب الولي منه أن يستحي من الناس، فيرد عليه: لو كانوا ناسا لما تلاعبت بهم تلاعب الصبيان بالكرة، ولكنّ الناس في رأيه هم أهل الولاية، الذين يتعبونه، عندما يستجيرون بالله-تعالى-، قال: رأيت إبليس في المنام-نعوذ بالله منه- وهو عريان، فقلت له: أما تستحي من الناس، فقال: أهؤلاء عندك من الناس، قلت : نعم، قال: لو كانوا من الناس، ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة،....(اليافعي،ص١٥٣-١٥٤)

*** الحكاية الثلاثون بعد المئة**

وهنا يرسم اليافعي أيضا للولي النواري صورة تشبه صورة النبي،الذي يعلم ما في الغيب، فهو يخبر من يجلس معهم، أنّ الشاب الذي يدخل عليهم يهودي، فلا يقرّ للقوم قرار، حتّى يتأكدوا من الشاب، فيسألهم: كيف عرفتم، فيقولون: أخبرنا فلان، فيعرف الشاب اليهودي أنّه صدّيق، فيدخل في الإسلام، ويصبح من كبار الصوفية،...قال:.. فأقبل شاب ظريف، طيب الرائحة، حسن الخلقة، حسن الوجه، فقلت لأصحابنا: يقع لي أنّ يهودي، فكره أصحابي قولي، ...(اليافعي، ص١٥٥)

*** الحكاية السابعة والثلاثون بعد المئة**

وأمّا في هذه الحكاية، فلا تكتمل ولاية الولي السائح إلّا بلقاء الأبدال، الذين يسري فيهم النور المحمدي، فيعرفونه ويعانقونه، ويسير معهم، فيرى كيف يسيرون على الماء، كما يسيرون على الأرض، ويرى كيف يأتيهم طعامهم من السمك المشوي، عندما يشعرون بالجوع،...قال: سافرت، شرقا وغربا؛ طمعا في أن أكتحل بالأبدال، فوافيت ساحل البصرة، عشاء، فتيامنت من الطريق، وقربت من الساحل؛ لأكون قريبا من الماء،

فرأيت عشرة نفر قعودا على السجادات،...(اليافعي، ص١٥٩).

*** الخاتمة**

ظهر للباحث، خلال مروره على بعض حكايات الأولياء والصالحين؛ للكشف عن أثر النظرية المحمدية فيها، أنّ عفيف الدين اليافعي أراد أن يروّج لهذه النظريّة من خلال سرد وقائع حقيقية عاشها أصحابها أو رويت عنهم دون إسناد، من أرباب المتصوفة، ممن اشتهر عنهم الصلاح، كأمثال ذي النون المصري، والفضيل ابن عياض، والجنيد، وإبراهيم الخواص، وإبراهيم بن أدهم، وشقيق البلخي، وغيرهم، واتكاؤه على هؤلاء الأعلام في زمانهم، يوحي أن اليافعي قد أخذ في حسبانه تحقيق القبول النفسي لهذه الحكايات، عند من يسمعها أو يقرؤها.

وممّا تبين أيضا أنّ سرد اليافعي لهذا العدد الكبير من الحكايات للأولياء والصالحين، فيه ردّ على من ينكر هذه الحقيقة، وهذا الردّ يحتاج إلى أدلة وشواهد من الواقع، الذي يعيشه هؤلاء الأولياء، الذين ساروا على خطى الأنبياء، وفي مقدمتهم سيدنا محمد- عليه أفضل الصلاة والسلام-، فاستطاعوا أن يصلوا درجة الولاية أو القطبية، وأن يقتبسوا من النور المحمدي، الذي يسري في الأصلاب.

وعليه فقد تجلّى للباحث أن اليافعي وظّف الحقيقة المحمدية توظيفا عمليّا، بما يتوافق مع الرؤية الصوفية، التي ترى أن القطب والولي والأبدال هم ورثة النور المحمّدي، وهم امتداد طبيعي له، فسيرهم سير الأنبياء، وبناء على هذا، حفلت الحكايات بالقدرة على كشف الغيب، والاطلاع عليه، وتسخير مظاهر الطبيعة للأولياء والصالحين، والخوارق والكرامات التي تضاهي المعجزات، والتوسل وحصول الاستجابة به، والرؤى المنامية، التي تشبه الإيحاء للأنبياء، وحضور الخضر والملائكة ورؤية الربّ، وهذا كلّه بعيد عن التأويل المجازي أو الخيالي لهذه الرؤية.

وأخيرا، فاليافعي من المتأثرين بأفكار ابن عربي حامل لواء هذه النظرية، وعليه فقد يشكّل هذا البحث لبنة أولى، لأبحاث تجرى حول كتاب روض الرياحين، أو مؤلفاته الأخرى؛ تكون أكثر عمقا واتّساعا، تتناول أبعاد النظرية المحمدية، والخطاب الصوفي فيها.

*** المراجع**

إيمان البلوي، اليافعي شاعرا(رسالة ماجستير)، جامعة مؤتة، ٢٠١٠م.

ابن تغري بردي ، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دت.

ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن – الهند،١٩٧٢م.

خير الدين بن محمود ، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦ هـ)،الأعلام، الطبعة الخامسة عشرة ،دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

رائد عبد الرحيم، نظرية الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية في الخطاب الصوفي وأثره في شعر المديح النبوي في العصر المملوكي،ط١، الشامل للنشر،نابلس-فلسطين،٢٠٢٠م.

زكي مبارك، التصوف الإسلامي،ط١، مطبعة الرسالة، ١٩٣٨م.

عدنان حسان، وعبادي غركان، وجهة النظر في الحكاية الصوفية عند اليافعي، جامعة القادسية ، مجلة القادسية، المجلد ٢٢، العدد٣ ، العراق،٢٠١٩ م.

ابن العماد العَكري الحنبلي، (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبارمن ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط،ط١، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

محمد بن علي الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة – بيروت ، دت.

أبو محمد عفيف الدين اليافعي (المتوفى: ٧٦٨ هـ)، روض الرياحين في حكايات الصالحين ،نُزْهَةُ الْعُيُوْنِ النَّوَاظِرِ وَتُحْفَةُ الْقُلُوْبِ الْخَوَاضِرِ فِيْ حِكَايَاتِ الصَّالِحِيْنَ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْأَكَابِرِ، مكتبة زهران، القاهرة – مصر، دت.

محيي الدين بن عربي،(٦٣٨هـ)، الفتوحات المكية ، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.